

أمثال القرآن

[47] بِرَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ، إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللِّظَّانِّ زُنُونًا . إِنَّ هَذِهِ آيَاتُ أَهْلِ اللَّتَأَمَّلِ مِنْ حَيْثُ أَنهَا تَكْشِفُ عَنْ مَعَانَاةِ الْمُسْلِمِينَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ . وَحَسَبَ هَذِهِ الْآيَاتِ ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ وَحَاصِرَ الْمَدِينَةِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ ، وَقَدْ بَلَغَتْ أَعْدَادَاتِ الْأَعْدَاءِ وَعَدَّتْهُمْ إِلَى مَسْتَوًى جَعَلَتْ أَبْصَارَ الْمُؤْمِنِينَ تَزِيغَ ، وَقُلُوبَهُمْ تَبْلُغُ الْحَنَاجِرَ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَلِيلُونَ وَعَدَّتْهُمْ مَحْدُودَةٌ وَأَسْلَحَتُهُمْ بَسِيطَةٌ ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي نَفُوزِ الرُّعْبِ وَالْخَوْفِ فِي قُلُوبِ ضِعَافِ الْإِيمَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَيْثُ كَانَتْ عِبَارَاتُ التَّزَلُّزِ وَالشَّكِّ تَدُورُ فِي أَذْهَانِهِمْ وَقَدْ يَكُونُ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا بِاسْتِثْنَاءِ الرَّسُولِ (صلى الله عليه وآله) وَالْإِمَامِ عَلِيٍّ (عليه السلام) وَوَعْدَةٌ قَلِيلَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَزَلُّزُوا إِيْمَانًا . فَإِنَّ ضَعِيفَ الْإِيمَانِ يَتَزَلُّزُ عِنْدَ مُوَاجَهَةِ الْأَزْمَةِ شَدِيدَةً ، عَكْسَ قُوَى الْإِيمَانِ حَيْثُ يَقْوَى إِيْمَانُهُ وَيَزْدَادُ ثِبَاتُهُ عِنْدَ مُوَاجَهَةِ الْأَزْمَاتِ وَالْمَشَاكِلِ . إِنَّ مَعْرَكَةَ الْأَحْزَابِ كَانَتْ سَاحَةً لِلِاخْتِبَارِ لِمُمَيِّزِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَقِيقِيِّينَ عَنْ غَيْرِهِمْ مِنْ ضِعَافِ الْإِيمَانِ وَالْمُتَرَدِّدِينَ فِي إِيْمَانِهِمْ . إِنَّ نَهَايَةَ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ كَانَتْ لِمُصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ تَحْصُلْ مُوَاجَهَةٌ وَارَاقَةٌ دِمَاءٍ إِلَّا فِي مَوْرَدٍ وَاحِدٍ ، حَيْثُ قَتَلَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ (عليه السلام) عَمْرُو بْنَ وَدٍّ . عَسَكَرَ الْأَعْدَاءُ ابْتِلَى بِأَعْصَارٍ شَدِيدٍ ، وَلَشَدَّتْهُ كَانَتْ تَقْلَعُ خِيَامَهُمْ مِنْ أَمَاكِنِهَا وَتَقْلِبُ قُدُورَ الطَّعَامِ ، كَمَا سَادَهُمْ خَوْفٌ وَاضْطِرَابٌ وَخَيْبَةٌ أَمَلُ اجْبَرَتْ أَبَا سَفِيَّانٍ وَغَيْرَهُ مِنْ زُعَمَاءِ الْكُفْرِ عَلَى الرَّجُوعِ كَالْجَيْشِ الْخَاسِرِ ، وَبِذَلِكَ تَحَقُّقُ وَعْدِ اللَّهِ بِنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ تَارَةً أُخْرَى ، وَنَجَى الْمُؤْمِنُونَ مِنْ خَطَرٍ كَبِيرٍ كَانَتْ يَهْدُدُ وَجُودَهُمْ وَدِينَهُمْ ، فَكَانَ نَصْرًا لِلْمُسْلِمِينَ أَضْفَى عَلَيْهِمْ قُدْرَةً وَعَظْمَةً جَعَلَتْ مَكَّةَ وَضَوَاحِيهَا لَا تَفَكِّرُ بَعْدَئِذٍ بِحَرْبٍ مَعَ الْمُسْلِمِينَ . وَلِأَجْلِ هَذَا اسْتَسَلَمَتْ بَعْدَ فِتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ مَكَّةُ وَأَهَالِيهَا لِيَصْبِحَ الْإِسْلَامُ الْقُوَّةَ الْوَحِيدَةَ فِي بِلَادِ الْحِجَازِ . الْمَرْحَلَةُ السَّادِسَةُ ، اللُّجُوءُ إِلَى اخْطَرِ سِلَاحٍ (النَّفَاقِ) رَغْمَ انْتِكَاسَةِ الْأَعْدَاءِ فِي حَرْبِ الْأَحْزَابِ وَخَسْرَانِهِمُ الْحَرْبَ آنَذَاكَ ، وَرَغْمَ مَا تَرْتَبُ عَلَى هَذِهِ الْانْتِكَاسَةِ مِنْ عَدَمِ تَفْكِيرِهِمْ بَعْدَئِذٍ بِدُخُولِ حَرْبٍ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ مَا كَانَ يَعْنِي تَرْكَهُمْ لِمُعَارَضَةِ الْإِسْلَامِ وَمُخَالَفَتِهِ . إِنَّ الْأَعْدَاءَ ، أَثَرَ ادْرَاكِهِمْ فَشَلَ وَسَائِلَ الْمُوَاجَهَةِ السَّابِقَةِ